بلا نهاية

اميرة أنور عبد الحميد

مرحبا! أنا حور، نعم اســـم جميل أشـــكركم، ويا ليت حياتي بجمال اسمي! ما جنسيتي!؟ فلسطينية، وبالطبع لا تحتاجون لأصف لكم كيف أحيا! حســنا ســأكمل قصــتي دون حاجة للتعمق في مشــاعر الأسف.

كنت تقريبا في الصــف الثاني الإعدادي عندما عدت لمنزلي وأنا ســعيدة بتفوقي اليوم، وحماسي يزداد كلما اقتربت من المنزل لأنال بســمة أمي الحنونة وفخرها يلمع في عينيها، وقبلة أبي الداعمة وقطعة الشــكولاتة كما يفعل دائما! ولكنني وجدت أمي دموعها تجري على وجنتيها بهدوء ووجهها خالي من أي انفعال بدلا من بســمتها، وأبي كان يترك مكانه المعتاد فارغا وعقدت حاجبي بقلق طفولي وسألت والدتي:

_لما الدموع وأين ابي!؟

وقتها ردت على بثبات:

_والدك سيعود بإذن الله.. سينصره الله وسيعود يا ابنتي!

وصــمتت بحزم وثقة لم تدهشــني كثيرا فقد اعتدت على أمي دائما قوية رغم دموعها التي تخفف من مرارة ألمها قليلا! ومن حديثها لم أحتاج للكثير من الذكاء لأخمن أن اليهود أخذوا أبي بتهمة ما! دب الرعب في قلبي خوفا عليه وسألت أمي بقلق:

_هل أخذوه ثانية يا أمي!؟

نظرت لي وصمتت وكانت إجابتها دمعة أخرى فرت بهدوء ليشتعل الغضب بداخلي نابع من خوف جعل جسدي يرتجف للحظة، قبل

أن أركض في الشوارع ونداء أمي الباكي خلفي مازلت أسمعه حتى الأن، ورغم ذلك لم أعيرها انتباه، ورغبة عنيفة في الثأر منهم أفقدتني القدرة على التفكير لحظتها مرتين وأنا أقف أمام صـــف من الجنود ومازلت إرادتي مريلتي التي اتســـخت من تراب الطريق ولم أشـــعر بنفسي_ إلا وأنا أســـبهم بألفاظ طفولية حمقاء، والحجارة في يدي الصغيرة ألقيها عليهم بأقصى قوتي الواهية من الأساس، ودموع تنغز عيني تحرق جوفي وهتافي المتحشرج يعلو ويعلو كالعويل:

_أين أبي! أين أبي..

وهم يبعدونني بدروعهم وزعيقهم بلغتهم الملعونة يتعالى أمام صراخي، حتى كاد أحدهم أن يضربني بعصاه الغليظة لأجد ذراعا قوية حول خصري ترفعني عن الأرض بقوة وقدمي تلوح في الهواء وصراخي يزداد في صاحب هذه الذراع. وأخيرا أنزلني بعدما أبعدني عنهم تماما، لأرفع وجهي الأحمر من الغضـــب والبكاء لذلك المتدخل الأحمق وأصرخ به قائلة:

_ماذا فعلت أنت!؟ لماذا أخذتني من أمامهم... كنت أحاربهم لأعيد أبي!

كان يلهث قليلا بجسده المتناسق وينظر لي بحنق بعينيه الخضراء ويضع يديه بخصره يراقبني بغضب، حتى قاطعني قائلا بسخرية:

_تحاربيهم! هل جننت؟؟؟ طفلة مثلك تحارب صفوفا من الجنود ببعض الحجارة!؟

وقتها زممت شـــفتي غير قادرة على الرد ودموعي انســـابت دون أن اشعر وقلت بخفوت:

_أنا أريد أن أعيد أبي للمنزل!

ووصلني صوته الذي كان هادئا الأن وبه حنان وشفقة جعلتني أرفع عيني الدامعة بغضب:

_حسنا اهدئي وسيعود بإذن الله!

وتلك الشفقة أغضبتني، وقلت بحنق:

_من أنت بالله عليك لتحملني بتلك الطريقة من الأســـاس؟ أأنت معتوه!

وعاد لغضبه من جديد وقال:

_هل تعلمين معكي حق، كان يجب علي أن أتركك لهم ليســـجنوك أنت أيضا وتتركي والدتك تبكي عليك أنت أيضا!! هيا عودي إليهم يا محاربة!

وغادر من أمامي فجأة كما ظهر فجأة أيضـــا، وحديثه يرن في رأسي، وفكرت حينها أنه يجب علي أن أساند أمي وأعوضها غياب أبي حتى يعود.

لم أكن أدرك أن غيابه ســـيطول لمدة ثلاثة أعوام! رأيته خلالها بصـــعوبة ولوقت قصـــير أيضـــا. وفي المرات القليلة تلك كان دائما يربت على يدي بحنان ويقول بقوة:

_أنا تركت خلفي من سيحمي نفسه جيدا ليحمي أمه!

وقتها أومئ برأسي دون أن أقدر على التفوة بكلمة، ودموعي تنســـاب دون أن أشعر. والأيام تمر بصعوبة ولم ألتقي بذلك الشاب المتطفل

أبدا. رغم أنني حين هدأ غضـــبي أدركت مدى غبائي في تلك اللحظة ومدى شـهامته أيضـا! وأردت الصـدفة أن تجمعنا من جديد لأعتذر له وأشكره ولكن لم يحدث.

مر عام أخر كنت تقريبا ملتصـــقة بأبي كطفلة صــغيرة مرتعبة، رغم أنني أتممت تسعة عشر عاما، إلا أني كنت أخاف اختفائه مرة أخرى. وفي يوم مشـــمس عند عودتي للمنزل رأيته، ويا ليتني لم أراه، كان تقريبا مصــاب بطلق ناري في ذراعه ويســير مترنحا يكاد أن يصــاب بالإغماء، وكان يلهث وينظر خلفه كل ثانية تمر بقلق ارتياب، وأخيرا ســقط أرضــا في زاوية ما يتأوه بخفوت، لأجد بعض الجنود يتلفتون حولهم وأدركت سريعا أنهم يبحثون عنه! ولم أشـعر بنفسي- إلا وأنا أقف أمامه وأنزل إليه وأقول بقلق:

_هيا سريعا استند علي، سيجدونك هنا... هيا لا وقت لدينا!

ورغم إرهاقه الواضـح إلا أنه كان ينظر لي بتمعن وكأنه يتذكرني! هل نســاني من الأســاس!؟ ولماذا أنا لم أنســاه بالمثل! وتوقفت عن أفكاري الحمقاء عندما اســتقبلت وزنه على كتفي، حاولت أن أســير بأسرع ما عندي حتى وصــلنا لقرب منزلي، ولم يقدر هو على الســير أكثر ليقع أرضـــا وأغمض عينيه ببطء فاقدا للوعي وســـط هتافي المرعوب عليه!!!

حمدت الله أنه ســقط قرب منزلي ليســاعدني أبي معي. هو الأن نائم بغرفتي ولم يفق بعد، ووالدتي كانت عيانها بها أســـئلة كثيرة وقلق أكبر! وتحاشـيت أي تحقيق الأن حتى أطمئن عليه، لم أكن أدرك أن أبي يمتلك مهارات طبية مما أدهشني قليلا.

جلسنا أخيرا والوقت يمر يشوبه القلق، وأمي لم تتمالك نفسها وسألتني أخيرا من أين أتيتي به؟ قصصت عليها ما حدث باختصار، بينما أبي كان يراقب حديثي بصمت حتى علق:

بارك الله لك يا ابنتي، ولكن في المرة القادمة احذري، هؤلاء الخبثاء غدارين أتفهميني!

أومأت برأسي بصمت، حتى سمعت تأوهه لأذهب سريعا أليه وجلست أمامه على الكرسي أراقبه وهو يفتح عينيه الخضراء بهدوء، ومازال يتأوه عاقدا حاجبيه بألم! وقعت عيناه المتعبة في عيناي المترقبة وازداد انعقاد حاجبيه وسأل بخفوت متعب:

_أين أنا؟ ... وماذا حدث!؟

لم أدرك لماذا ابتسمت في تلك اللحظة وأنا أجيب:

_أنت في بيتي، لقد أصيبت بطلق ناري وفقدت الوعي فأسعفك أبي.

صمت قليلا ينظر إلي بتمعن وقال بخفوت: أنا أشعر أني رأيتك من قبل!

اتسعت عيناه قليلا عندما تذكر وكاد أن يتحدث ولكن قاطعه صوت أبي الهادئ الحنون وهو يقول:

_حمدا لله على سلامتك يا بني..

ابتسمت له أمي بهدوء ونظر لهما بامتنان شاكرا لهما. مضت دقائق أخرى ولكنها مختلفة. قص علينا ما حدث له وسبب إصابته، وأنا كنت استمع إليه بشغف حزين، وغضبي اتجاه هؤلاء المجرمون يزداد ويتفاقم، حتى هو لمعت دموعه في مقلتيه وهو يتذكر والداه

اللذان فقدهما منذ زمن، فقد قتلت أمه على أيديهم ومات أبوه في سجونهم! وبقي وحيدا يحارب هؤلاء الكفرة. قرر أبي أن يغير مجرى الحوار بعدما شعر بحزنه العميق، ومضت ساعات أخرى كان ينظر لي ويبتسم بشرود لأحدجه أنا بنظرات حانقة حتى يكف عن النظر إلي بعينيه الخضراء الملعونة تلك! مر اليوم بسلام بعدما أصر عليه أبي أن يبيت معنا حتى يلتئم الجرح قليلا.

لم يزرني النوم أبدا تلك الليلة، وقفت في شرفتي شاردة حتى أصابتني رجفة برد فأثرت أن أعود للداخل من جديد، وصدمت عندما سمعت صوته الهادئ يناديني من خلف الباب! وقفت مكاني مندهشة، بعدها تحركت لأقف أمامه عاقدة حاجبي بتساؤل ابتسم لي بإحراج قائلا:

_عذرا يا أنسة ... أنا أريد دخول الحمام واخجل أن أخرج من الغرفة فجأة و..

قاطعته مبتسمة بهدوء:

_حسنا لا داعي للشرح، تعال معي.

تبعني حتى أوصلته وعدت أدراجي انتظره في الصالة، خرج أخيرا وهو يمشي بإرهاق، نظر لي مبتسما:

_شكرا لك... ألن تنامي!؟

صمت بخجل قليلا وتنحنحت قائلة:

_لا... لا أشعر بالنوم! كنت واقفة في الشرفة قليلا.

أومأ برأســـه ببطيء متفهما ثم تنحنح قائلا: هل يمكنني الوقوف في الشرفة، لقد أصبت بالاختناق من جلستي في الفراش!

صــمت قليلا بتردد، ثم وافقت أخيرا وصــاحبته إلى الشرـفة لأتركه يسـتنشـق الهواء البارد بعمق ويتنهد بحزن، خيم الصـمت للحظات حتى باغتني بســؤاله المشــاكس: إذا أنت المحاربة الصــغيرة أليس كذلك!؟

نظرت له بخجل حانق وقلت:

_أنظر إلى من يتحدث! أنت بالكاد مصــاب برصــاص ناري يا رجل! وتسخر مني الأن أيها البطل!

ضحك قليلا وأردف مهدئا:

_لم أقصــد الســخرية... ولكنني تذكرتك عندما كنت أصــغر قليلا وكنت تحاربينهم بالحجارة وأنت ترتدين المريلة!

ابتسمت بداخلي برضى وأسعدني أنه تذكرني كما أنا لم انساه! وقلت بخفوت:

_نعم كنت صغيرة مرتعبة.

ابتسم تلك الابتسامة الرائعة وقال هامسا:

_والأن أنت المحاربة الجميلة، ومازلت شجاعة أيضا كما أنت.

أخجلتني كلماته وابتســمت له بصــمت ليبادلني الابتســام بهدوء، وصمت قليلا بعدها همس:

_شكرا لك أيتها المحاربة.

لم يغضبني اللقب تلك المرة، ولكنني قلت بحنق لم أفهم سببه:

_أنا لدي اسم.. واسمي حور!

نظر لي قليلا وابتسم برقة قائلا:

_اسم يليق بمحاربة جميلة مثلك!

نظرت له بحنق وخجل مما أدى إلى احمرار وجهي وقلت:

_إنا اســـمي حور يا هذا، كف عن مناداتي بالمحاربة، ولا تقل لي جميلة أيضا!

رفرفت رموشي بارتباك واضح، واتسعت بسمته عندما رأى خجلي وأردف:

_حســـنا يا حور، اعتذر، ولكن دعيني أناديك المحاربة من الوقت للأخر ... ولن أقل جميلة، ما رأيك بساحرة!

نظرته عابثة ونظرتي حارقة! نظرت له بغضب واضح ليضحك هو بخفوت، لأزفر بحنق وأتركه وحده في الشرـفة وأعود الى مكان نومي بغضب وخجل. ألقيت بجسدي على الفراش بجانب أمي ونظرت في السقف عاقدة حاجبي بحنق، لكن سرعان ما ابتسمت بخجل ودقة قلب هاربة كانت هي بداية لاضطراب دقات كثيرة بعد ذلك!!!

مرت أيام قليلة كان هو يثير غضبي وخجلي أحيانا، وأحيانا أخرى يثير تعاطفي وحناني عندما أجده مرهق الملامح وشـــاردا بحزن! اعتدت وجوده في يومي وبيتي وحولي! أمصرـــ أن يغادر منزلنا بعد أن مر أسبوع على ضيافته لدينا، لم يجادله أبي كثيرا وخصوصا أنه لا يصح أن يبيت معنا أكثر من ذلك وهناك شابة مثلي معه في المنزل!

أوقات الفراق أكرهها! وقف على باب بيتنا يودع أبي وأمي، وأنا أقف خلفهم أنظر لـه بجمود، وبـداخلي أبكي فراقـه وقـد تعلق بـه قلبي وأدمنت وجوده! نظراته المتخفية لي فضـــحت حزنه العميق! لم أقدر على الوقوف أمام عينيه المودعة أكثر من ذلك وعدت لغرفتي واغلقتها خلفي دون أن أودعه بكلمة! الشيء الذي أثار دهشة والداي وبســـمته الحزينة لم تفارق خيالي طوال الأيام التي مرت بعد ذلك! حاولت أن أشـغل عقلي كثيرا عن التفكير به وبأحواله، وأشـتت قلبي عن القلق عليه! لكن دون جدوى.

وبعد أيام أخرى مرت متشابهة دلفت إلى المنزل بابتسامة هادئة وأنا أنادي والداي، لم أتوقع أبدا أن أراه جالســـا في صـــالون بيتنا مع والداي! يرتدي ملابس منمقة ومرتبة! بدا وســـيما لدرجة أوجعت قلبي! نظراتي المذهولة جعلته يبتســـم بخبث، لأبتســـم أنا بخجل ودقات قلبي أعلنت الحرب عندما قال والدي بابتسامة حنونة:

_تعال يا حور اجلسي.

جلســـت بالفعل أمام نظراته التي ظهرت بها اشـــتياق عميق، لكن اشـتياقي أنا فاقه بمراحل، ونظراتي تتنقل بين والداي بتسـاؤل، حتى قال أبي بابتسامة حنونة:

_عمار يا ابنتي طلب يدك مني! ما رأيك!؟

احمرت وجنتـاي بخجـل ورفرفـت رموشي بـارتبـاك ونظـرت لـه غير مصدقة لأجد ابتسامته تتسع وتضئ وجهه الوسيم، لأخفض عيناي بخجل وصـــمت أفكر بأن هذا حلم. أفيقي يا حور الرجل يجلس في بيتك وأمامك! ولم أعرف ماذا أفعل أو أقول... وقلبي يضـــطرب بين

خلجاتي وشــعرت بحرارة جســدي تشــتعل من الخجل وبداخلي أرقص من الفرحة، ورغم ذلك أنعقد لســاني ولم أقدر على التفوة بكلمة، ربت أبي على ظهري و هو يعيد ســؤاله من جديد، لأبتســم بخجل وأذهب إلى غرفتي بكل حماقة، ضــحك والداي، بينما أردف هو:

_واضــح أنها موافقة يا عمي ولكن الخجل أربكها! نعقد القران غدا ما رأيك!؟

ضحك أبي بقوة على ما قال عمار، كلماته بلهفة واضحة لأشعر بأنني سأفقد الوعي ويتوقف قلبي نهائيا من سرعة دقاته!

سمعت أبي يقول بعدها:

_ما هذه السرعة يا بني! انتظر قليلا.

وفرحته ظهرت في صوته وهو يرد:

_ولم التأجيل!؟ أنا لدي شــقتي فقط محتاجة لمســات بســيطة، ووحيد كما تعرف، ســنقيم الزفاف بعد فترة بســيطة ونعقد الكتاب غدا بدلا من الخطبة... قولي شيئا يا عمتي!

ضحكت والدتي بسعادة وقالت:

_الرأي رأي العروس وأبيها!

ابتسم أبي بوقار وقال:

_وانا ليس لدي مانع، سأسأل العروس أولا!

ولم يذهب من بيتنا إلا وهو معه موافقتي على كل كلامه! وأنا مازلت مذهولة وعقلي فقد القدرة على الاســتيعاب بأن عقد قراني غدا!! حدث كل شيء سريعا كسرعة البرق. ووجدت نفسي أرتدي فسـتاني الوردي وهو يقف بجانبي مبتســما بحب يلمع في مقلتيه الخضراء ويقبلني على رأسي برقة أذابتني وهمس في أذني:

_أحبك يا محاربتي الجميلة!

ابتسمت بخجل واخفضت عيني وصمت.

مر اليوم وهو لم يترك يـدي من يـده، وكأنـه كـان يعلم أن الفراق مكتوب علينا والألم رفيق لنا للأبد! مرت أيام قليلة غمرني بها بحبه الراقي ومداعباته التي كانت تثير غضبي، ليضحك ويقبلني على وجنتي ويعتذر! خطف قلبي مرة أخرى بعد عقد قراننا!

حتى جاء اليوم المشــئوم وقد أخذوه أمام عيناي، وصراخي كاد أن يذهب بصــوتي نهائيا، وعويل قلبي يذبحني، نظراته الأخيرة لي قبل أن يختفي داخل سـيارة المتعقل كانت تؤلم روحي، عيناي نزفت دما من كثرة بكائي عليه، رغم أن أهلي كانوا بجانبي إلا أنني لا أريد ســواه بجانبي الأن، أريده ليطمئنني ببســمته الرقيقة ولمســته الدافئة على وجنتي. أريد أن ابكي في أحضـانه واتشـبث به للأبد حتى لا أفقده من جديد، أريد أن أهمس له بتلك الكلمة ألتي أراد كثيرا سماعها " أحبك " بل أعشقك!

لكن النهايات السعيدة توجد في القصص والروايات فقط! والنهاية لم تخط بعد! ولم تتم قصــتي حتى. لكن اعلموا تماما أن نهايتنا مأسـاوية كما هو حالنا دائما، وأنتم سـتتعاطفون معنا وتبكون قليلا

ومن ثم تنشـغلوا عنا كما كنتم دائما أيضـا! فلا داعي لشـفقتكم الأن لأني اصبحت أمقت حزنكم المخزي على حالنا!

تمت بحمد الله